

الإنشاء عند الشيخ الطاهر ابن عاشور

*Construction by Sheikh Al-Taher Ibn Ashour*أ. بن شريك عبد القادر¹ ، أ.د. سعد بولنوار²

1 جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)

2 جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 12 نوفمبر 2019 ؛ تاريخ المراجعة : 24 ديسمبر 2019 ؛ تاريخ القبول : 31 ديسمبر 2019

ملخص:

هذا المقال يسلط الضوء على نظرة الشيخ الطاهر ابن عاشور فيما يخص موضوع مهم في البلاغة وبتحديد في علم المعاني ألا وهو الإنشاء ، حيث يظهر لنا وجهة نظر جديدة في مفهوم الإنشاء وطرق البناء و الأدوات اللازمة لمثل هذا العمل ، و طرق الإنشاء الصحيحة و ما يجب وما لا يلزم ، كما يبين لنا أنواع الإنشاء و أسلوب كل نوع و مؤهلات المُلقي و وجبه نحو المُتلقى و معرفته لأجواله و عاداته و تقاليده و الظروف المحيطة بالقول و المقال كما رتب ابن عاشور المعاني و قسمها إلى أساسي و بسيط و مكيف و شرح كل واحد و أظهر خصائصه ومميزاته و أهميته في بناء المقال و تحضير الخطاب، كما أظهر ابن عاشور طرق العلاج و وسائل التصفية حتى يكون الإنشاء كاملاً.

الكلمات المفتاحية: الإنشاء . المعنى الأساسي . الملقى . المتلقي . العرض . العارض . المعنوي

Abstract:

This article sheds light on the view of Sheikh Taher Ibn Ashour on an important topic in rhetoric and specifically in the science of meanings, namely construction, which shows us a new perspective on the concept of construction and construction methods and tools for such work, and the correct methods of construction and what should be necessary, as it shows us the types of construction and the style of each type and qualifications of the recipient and his meal towards the recipient and knowledge of his atmosphere and customs, traditions and circumstances surrounding the words and the article.

Ibn Ashour arranged the meanings and divided them into basic and simple and adapted and explained each one and showed its characteristics and advantages and importance in building the article and the preparation of the speech, as Ibn Ashour showed methods of treatment and means of liquidation so that the construction is complete.

Key words:

Construction - the basic meaning - the recipient - the receiver - the offer - the viewer - moral

* Corresponding author, e-mail: Kadabencherik3@gmail.com¹ - عضو مخبر إستراتيجيات الوقاية ومكافحة المخدرات في الجزائر - جامعة الجلفة

مقدمة:

علم البلاغة ليس بالعلم المستحدث إنما وجد مع وجود اللغة العربية ، فعندما كانت العربية تتكون بتقدير من الله سبحانه وتعالى في شبه الجزيرة العربية و بالتحديد في مكة المكرمة لينزل بها القرآن الكريم ، كانت علوم اللغة تتبلور فيها تدريجيًا ، و من حكمة الله أن تكون اللغة العربية هي المقصودة وهي الوعاء أيضًا ، وإن لم يكن هناك تدوين لعلوم اللغة العربية إلا أنها كانت موجودة في عقول الرجال يعرفونها و يتكلمون بها ، يطبقون قواعدها و يحترمونها أصولها ، فالعقل العربي يعرف بالسليقة ما يجب و ما لا يجب في كلامه و نظمه ، لذلك كان يتوخى الحذر في كلامه و نظمه لأن هناك من يراقب و من ينقد و من يصوب كما أن هناك من يُعلم و يُقوم ، فقد كانت للعرب مدارسهم الخاصة بالتكوين اللغوي و البلاغي و الأسلوبي و الإنشائي و الشعري ، هذا الفن (الشعر) الذي كانت العرب تعتبره مصدر فخر و اعتزاز تدون فيه أيامها و بطولاتها و مآثرها و أمجادها أفراحها و أحزانها بطولاتها و نكباتها إلى جانب الشعر كانت الخطب تحمل لواء الفصاحة و البلاغة و الإرشاد في المحفل المختلفة فلكل قبيلة شاعرٌ و خطيبٌ ، حتى الكلام كان يتعلمه الصغار من الكبار في المجالس و الأسواق هذه الأسواق التي كانت بمثابة المدارس التعليمية والنقدية والتوجيهية للكبار و الصغار يتعلمون فيها فنون اللغة العربية ، من أشهر هذه المدارس سوق عكاظ ، سوق ذي المجاز ، سوق حباشة سوق مجنة و موسم الحج العظيم أين كان يتوافد الأدباء و الشعراء من أجل عرض بضاعتهم الأدبية على الجمهور المتذوق و المشجع..... أين كان سادت العرب يعطون بسخاء للشعراء و الخطباء المجيدين ، فالإهتمام يمس الشعر و النثر افتخارا و كرما و تشجيعا على العطاء و الإبداع ، وإلى جانب كسب الرزق كان الأدباء يعرضون أعمالهم على أهل الاختصاص من الشعراء والخطباء وأهل اللسان وأصحاب البيان ، فالأدباء كانوا يعدون العدة من أجل هذه المناسبات و الأعراس الأدبية فينشئوا القصائد و الخطب من أجل المبارزة الأدبية فيعملون النظر في أعمالهم إذ يختارون أحسن قصائدهم لليوم الموعود لأن الحكم سيكون للأفضل فلا بد لهذه الأعمال أن تتوفر فيها مواصفات العمل المتقن و العرض الجيد حتى تفوز و ترضي الحكام ويتمتع الجمهور ، فكان على الأديب أن يختار دقيق الألفاظ و أقواها و أنسبها للمعاني وأن تكون الأساليب و العبارات متناسقة و منسجمة فيما بينها تخدم بعضها البعض.

لم تكن عملية بناء القصائد والخطب بالأمر السهل أو العشوائي وغير منظمة بل كان الأمر مرتبًا ومدرّسًا ، حتى الشعراء و الخطباء الذين كانوا يرتجلون الشعر و الخطب كان عملهم منظمًا في عقولهم و دليل ذلك عملهم المتقن القوي من جميع النواحي ، أما الذين يمحسون ويدققون في اعمالهم مثل زهير بن أبي سلمى الذي كان يمضي حولاً كاملاً في إعداد قصيدته ولا يخرجها للعرض حتى يستنفذ فيها كل جهده و يُعمل النظر فيها من جميع النواحي اللفظية والأسلوبية و اللغوية والبلاغية و من حيث الوزن و الزمان و المكان و اختيار ما يناسب السامع حتى سُميت قصائده بالحوليات .

فقد كان للعرب مدارسهم النقدية فيها حُكماً يُقَيَّمُون و يُقَوَّمُون شعرهم و نثرهم من حيث الحسن والجمال و القوة و الضعف و حسن السبك ، وتناسب الكلام مع واقع الحال و ملائمة الالفاظ للجمل و العبارات و الأساليب مع المعاني و الحروف مع بعضها البعض و الموضوع مع الافكار.... هذه الأقيسة و المعايير عند العرب في الجاهلية يُحتج بها عند الحُكم على الإنتاج الأدبي شعراً و نثراً عند الإختلاف من أجل تحديد الأقوى و الأحسن والافضل ... من القصائد و الخطب ، فيُذكر أن حسان بن ثابت غضب من حُكم النابغة الذبياني أيام كان حكماً على سوق عكاظ ، بالأفضلية للخنساء عليه عندما أنشدت قصيدتها :

قذى بالعين أم بالعين عوار..... أم ذرفت إن خلت من أهلها الدار
فطلب النابغة الذبياني من الخنساء أن ترد عليه فقالت : أي بيت أجمل في قصيدتك فقال:
لنا الجففات الغر في الضحى و أسيافنا تقطر من نجد دما
فقالت: في بيتك سبعة مواطن ضعف، قلت:

. الجففات: و هو جمع أقل من العشرة ، ولو قلت:الجفان لكان أكثر .
. الغر: و الغرة بياض في الجبهة و لو قلت: البيض لكان البياض أكثر اتساع.
. يلمعن: اللمع شيء يأتي ،ولو قلت: يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان.
. بالضحى: لو قلت: بالدجى لكان المعنى أوضح و أفصح.
. يقطرن: و لو قلت: يسلن لكان أفضل.
. دما: لو قلت: دماء أكثر من الدم
فالنقد هنا بُني على علوم في اللغة العربية:
. علم الصرف و تأثيره في المعنى.
. علم البلاغة (علم المعاني) و تأثير الالفاظ في العبارات و المعنى.
. // (عام البيان) و تأثير الوقت في الصورة الجمالية.
. علم اللغة (الصرف)الصيغ الصرفية الكثرة و القلة و تأثيرها في الصورة و المعنى.
. // // الترادف استعمال الالفاظ المناسبة.
. علم البلاغة(علم البيان) وضح الصورة.

هذه الملاحظات تنم على وجود معايير معينة محددة دقيقة فهذه التعليقات لا يمكن أن تكون عشوائية أو نرجعها للصدفة أو الإرتجال بل تعود إلى وجود مسبق لهذه المعايير و إن خفي الأمر عن البعض فهو موجود عند البعض الآخر، و إنشاء القصائد و بناء الخطب يقوم على هذا الفن الخفي.
- الإنشاء:

حاجة الإنسان إلى التواصل مع غيره عن طريق اللغة بصفتها الوسيلة الطبيعية فالإنسان خلق و هو يعرف الكلام كأداة للتفاهم بين البشر، و أول لغة للبشر هي العربية التي نزل بها آدم عليه السلام إلى الأرض ،وبعد أن تفرق البشر في الأرض اختلفت ألسنتهم مع مرور الزمن فصار من الصعب على البشر التفاهم فيما بينهم ، لذلك ابتدع الناس وسائل و طرق جديدة للتواصل منها لغة الإشارة و ليس العكس

فاللغة هي الوسيلة الأولى التي عبر بها الإنسان عن حاجاته و عما يدور في نفسه إذ أخذ يجتهد في خلق أساليب مناسبة تعبر عن خلجات نفسه و مكنونات عقله و مقاصده ، في كلامه العام أو في قصائده الشعرية و خطبه المؤثرة، متبعاً في ذلك التعبير أو إنشاء المعاني هذا الفن (الإنشاء) قواعده موجودة مع وجود البشرية ، تختلف من قوم إلى قوم و من شخص إلى آخر، الكل يختار طريقته و أسلوبه في الكلام، كلُّ وطريقة تعبيره التي يراها مناسبة و مقنعة للسامع، فقد كانت العرب تقول: أنشد قصيدته على الوزن كذا..... و بَنَى خطبته على ذكر الموت ، فألفاظ البناء و الإنشاء موجودة في العصر الجاهلي توجي إلى الاختيار و التدقيق و التمهيص، و العمل على التحسين و البحث عن أفضل وأحسن أسلوب و أيسر السبيل، يعبر به عن الصورة المراد أن تصل إلى السامع و التي تعبر عن واقع الحال، فالشعراء و الخطباء كانوا ينظرون في أعمالهم قبل العرض على السامع فزهير بن أبي سلمى مثلاً كان لا يخرج قصيدته إلا بعد حوّل من الزمن كاملاً يأخذ فيه كل الاحتياطات يدرس كل الجوانب الظاهرة و الخفية و المُحتملة ، يعالج الألفاظ و العبارات والتراكيب والجمل، و الجوانب الفنية و الأسلوبية حتى سُميت قصائده بالحوليات هذا الفن (الإنشاء) لم يكن بمعزل عن باقي علوم البلاغة ، فعلى بن أبي طالب رضي الله عنه عندما سئل عن البلاغة قال: (هي إيضاح الملتبسات وكشف عوار الجهلات بأسهل ما يكون من العبارات) فهو هنا يركز على و ضوح العبارة عند رسم الصورة وتوجيه الرسالة للمتلقي ، كما يعرف بعض الحكماء البلاغة (بأنها علم كثير في قول يسير) و هذا القول يعبر عن العقلية العربية المُحبة للإختصار و إن كان البعض يرى أن الإختصار ليس دائماً من البلاغة فقد قال عمر بن علاء على لسان الخليل: (يطول الكلام ليفهم و يختصر ليحفظ) فللإختصار أهدافه و للإطالة أهدافها كل حسب مقتضى الحال ، كما قال الخليل في تعريف البلاغة أيضاً هي: (كلُّ ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقاً و لتلك الحال واقفاً و آخر كلامك لأوله مشابهاً و موارده لمصادره موازناً فافعل) فالمتفق عليه في هذه التعاريف هو بناء الكلام على ما يوافق واقع الحال و اختيار ما يناسب المقام و ما يفي بالغرض و المطلوب. (ابن عاشور، 2012)

الملاحظ في تاريخ البلاغة بصفة عامة أن الاهتمام الأول بهذا الفن كان من قبل علماء النحو على نحو متناثر في دراساتهم اللغوية ، و يذهب البعض إلى أن أبو عبيدة هو من أثارَ هذه الدراسة ، وقد عرفها البعض بقولهم: (البلاغة هي إجابة اللفظ و إشباع المعنى) و عرفها آخر: (من البلاغة حسن الإيجاز ويرجع إلى سبب نفسي فهو يدعو إلى أن يشارك السامع المتكلم في الكلام و بيان المراد و الإشارة إلى الشيء من بعيد يستدعي عمل الفكر و حصر الذهن). (عتيق، 2009)

في البداية كانت البلاغة تهتم باللفظ و المعنى و التركيب بعد ذلك بدأ التوسع في هذا العلم و إفراجه بالدراسة عن باقي علوم اللغة و قُسمت إلى علم المعاني ، علم البيان ، علم البديع و ما يهمنها هنا هو علم المعاني الذي أشار إليه أول مرة عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) لاهتمامه بموضوع الإنشاء قبل التعمق في مختلف مواضيعه في الدراسات الحديثة كما جاء في كتاب (أصول الإنشاء و الخطابة) للشيخ الطاهر ابن عاشور. (الجرجاني، 1912)

قُسمت البلاغة إلى علوم ثلاثة: علم المعاني، علم البيان، علم البديع، و بقي هذا التقسيم إلى وقت قريب، و كانت الدراسات تدور في هذا الفلك بالتوضيح والتفصيل والزيادة في التعريفات بالنسبة للمواضيع و شرح الاختلافات الواردة في هذه العلوم إلى أن كتب الشيخ الطاهر ابن عاشور كتابه (أصول الإنشاء و الخطابة). (عتيق، 2009)

تعريف الإنشاء في اللغة: هو البناء.

المعنى الإصطلاحي:

الإنشاء هو قَسِيمُ الخبر و هو الكلام الذي لا يحتمل الصدق أو الكذب ذلك أنه ليس لمُدلول لفظه قبل النطق به وجود خارجي يطابقه أو لا يطابقه عكس الخبر وقُسم الإنشاء إلى :

.إنشاء طلي: و هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، و هو خمسة أنواع: الأمر، الإستفهام ، النهي ، التمني ، النداء .

.الإنشاء غير الطلي : و يتمثل في: القسم، المدح و الذم ،الرجاء ، التعجب ،صيغ العقود

تعريف الإنشاء عند الطاهر ابن عاشور

الإنشاء كاسمه هو إحداث معانٍ منسقة و مفرغة في غرض مطلوب فإذا أحسن وصلها و جمعها جاء الإنشاء كاملاً . (عتيق، 2009)

فالإنشاء عنده خلق معانٍ أو تصورها، ثم اختبار الألفاظ و العبارات المناسبة لذلك المعنى أو الصورة التي نريد أن نوصلها للمتلقي (السامع أو القارئ) كما يجب أن نحسن ربط هذه الألفاظ و التراكيب و المعاني بعضها ببعض بدقة و بطريقة لا يختلط فيها السابق باللاحق و الجزء بالكل من أجل الوصول إلى الغرض المطلوب ، فحسن الربط و الجمع هو ما يجعل الصورة واضحة و الإنشاء كاملاً، كما يشير الشيخ الطاهر ابن عاشور إلى أهمية الإنشاء لأنه يمثل وسيلة لربط العلاقة بين المُلقّي و المُتلقّي برسالة واضحة، و ذلك لا يتم في الإنشاء إلا بثلاثة: المعنى الأساسي- تفصيله- ايضاحه. (ابن عاشور، 2012).

المعنى الأساسي

يهتم ابن عاشور في الإنشاء بالمعنى الإجمالي و الصورة التي يجب أن يكون عليها، فالمعنى المراد التكلم فيه أو الكتابة عنه هو ما ينبغي أن يحيط به المُلقّي حتى يجد أيسر السبل إلى قلب و ذهن و نفس المتلقي ، ذلك أن المعنى الأساسي هو عرض إجمالي يجب استحضاره بجملته في الذهن كفكرة صالحة للحمل في عبارات و قوالب لفظية دقيقة يقصد من ذلك الشيخ الطاهر ابن عاشور أن المعاني العامة الواضحة يفترض أن تكون قابلة للحمل في كلمات و عبارات مفهومة حتى يتمكن من التعبير عنها وتجسيدها في صورة ظاهرة المعالم ، فالأفكار الغير الواضحة و الغامضة أو المختلطة لا يمكن أن تكون موضوعاً أو محوراً للكلام أو الكتابة ، و عليه يجب تنقية الأفكار من الشوائب و العوالق و الرواسب التي يمكن أن تكون فيها أو تلتحق بها عند الكلام أو الكتابة ، فقد يتوهم السامع أو القارئ شيئاً لم يكن مقصوداً جراء العمل غير المتقن و عدم التصفية كما أن ذلك يسهل عملية الشرح و

التفصيل و التبصر في تقاسيم المعنى الأساسي مما ييسر التفريع و التفكيك و التنبه للتفاصيل والحقائق و الأدلة و المرغبات و المنفرات ...إذ يمكن أن يكون للمعنى الواحد صورا متعددة و تحمل الفكرة أفكارا تتضامن فيما بينها لبناء المعنى أو الصورة التي نريدها أو نحاول أن نجسدها للسامع و قد تتضارب هذه الأفكار فيتوجب علينا الحذف و التعديل حتى لا يفسد العرض و نحيد عن المطلوب (المعنى الأساسي) وبعده بناء المعنى الأساسي و الإحاطة به ننتقل إلى التفصيل و الشرح و الإيضاح. (ابن عاشور، 2012)

تفصيل المعنى:

يدعو الشيخ طاهر ابن عاشور إلى إطالة النظر في المعنى الأساسي من أجل تفكيكه إلى أجزائه المكونة له وشرحها للمتلقي حتى نتمكن من اقناعه ، فتوضيح الأجزاء طريق إلى فهم الكل ، لأن الأفكار العامة وإن كانت واضحة فإنها تحمل معاني جزئية مهمة في المعنى الأساسي يجب التنبه لها ومعالجتها فإسقاط المعنى الأساسي مرة واحدة في ذهن المتلقي قد يثقل عليه لا سيما أنه يجهل المراد منه ، فالتهميد بعرض الأفكار و المعاني الجزئية تساعد على التدرج في الفهم من أجل الوصول إلى هرم المعنى ، فنظرة الشيخ الطاهر ابن عاشور هي وضع المتلقي بين يدي الموضوع بتبسيط الأفكار الجزئية و شرحها و ذلك بالنظر إلى كيفية تركيب هذه الأجزاء بعضها ببعض كما أن التفصيل يتيح لنا أن نرى وسائل و أدوات البناء و التدرج شيئا فشيئا إلا أن يصل إلى القمة و هي المعنى الأساسي ، و عملية تفصيل المعنى الأساسي تساعد الملقي أيضا على ترتيب المعاني حسب الأولوية و الأهمية وهي عملية مفيدة للعارض تساعد على التركيز على العناصر واحدا واحدا واستحضار أدوات و وسائل التقوية و الدعم من حجج و مرغبات كما تعطيه فرصة عرض هذه المعاني في حلة تسقط في نفس المتلقي سقوطا حسنا ، فكل ما كان العارض مُلمّا بمعانيه و أفكاره و أدوات بناء المعاني كان مقنعا أكثر و أفيد للمتلقي، حتى يتدرج في المعنى بشكل تصاعدي ، و عندما ينتهي العارض من عرضه يكون راضيا بالنتائج المحصل عليها لأنه عالج مادته بالوسائل اللازمة. (ابن عاشور، 2012)

الإيضاح:

يقول ابن عاشور: إن شرح تلك المعاني و ذكر أدلتها و فروعها، ليتمكن حينئذ من التعبير عنها بوجه سهل التصور للسامعين، فإذا حصل ذلك لم يبق إلا كسوّ تلك المعاني بألفاظ فتسهل الإفاضة في إنشاء الموضوع المراد على حد ما قيل: (فإن وجدت لساناً قائلا فقل). فهو يرى أنه بعد بلورة الأفكار، ينتقل إلى الأفكار التي تجوب و تسبح في فلك الموضوع المراد الكتابة فيه أو الكلام عنه ، فالمعاني تحتاج إلى التبسيط و تجسيدها في صورة ملموسة أو محسوسة و ذكر ما يدعمها من براهين تزيل اللبس إن وجد وتدعم القناعة إن كانت فاترة و تقوي اليقين إذ حصل، فالإيضاح عند الشيخ بن عاشور لا يمس الغامض من المعاني فحسب ، فهو عمل يقوي المعنى بإثرائه و التوسع في محيطه حتى يصل إلى جميع النواحي الظاهرة و الخفية ، حيث يمكن السامع من تصور المعاني بيسر وسهولة، يذهب ابن عاشور في ذلك مذهب ابن المعتز الذي قال: (إن البلاغة بثلاثة أمور- أن تغوص لحظة القلب في أعماق الفكر و تجمع بين ما غاب وما حضر، ثم يعود القلب على ما أعمل فيه فيحكم سياق المعاني و يحسن

تنزيدها ثم يبدئها بألفاظ رشيقة مع تزيين معارضها و استكمال محاسنها) و هذا الأمر لا يأتي مرة واحدة و بصورة كاملة متكاملة ، فالذي يريد أن يأتي بالموضوع على جملة يصيبه الإرهاق و الملل والضجر، كما أنه يُتعب السامع إذ يغمره بالكثير من المعاني المتشعبة حيث لا يستطيع ولا يتمكن من التمييز بينها فيصيبه الإرهاق و تذهب الفائدة فكل عارض يجب أن يضع المتلقي على سرير الراحة حتى لا يضيع الغرض. (ابن عاشور، 2012)

الأساليب الإنشائية عند ابن عاشور (الميساوي، 2015)

يرى ابن عاشور أن الإنشاء يُعالج من جوانب كثيرة مترابطة فيما بينها تخدم بعضها البعض من أجل إنشاء متكامل دقيق و محكم هي :

.العارض:

الملقي أو الكاتب هو أهم عنصر في الموضوع لأنه إذا كان متكلماً و أن تكون فيه مواصفات تؤهله إلى أن يكون حاملاً للرسالة بلسانه ، من بين هذه المواصفات:

. الشخصية:

قوة الشخصية تنعكس على العرض المقدم للسامع و قدرة الإقناع تعتمد على شجاعة الملقي في تقديم عرضه ، فالعزم و الإرادة والإقدام و الإيمان بالموضوع أمور لها دورها في التأثير على عقول الناس، وحضور الشخصية القوية في المعنى الأساسي و الجرأة في الأداء وعدم التردد في تقديم الأفكار وشرحها و تفصيلها، ثم أن عرض الأدلة و البراهين تحتاج إلى حضور كبير يتغلغل بين عواطف الناس وعقولهم، من أجل كسب ثقتهم أثناء عرضه لمجريات الأحداث.

.الألفاظ المستعملة:

اختيار الألفاظ المناسبة للموضوع و طبيعته ونوعه مهم جداً من أجل رسالة دقيقة و عرض محكم، فقدرته العارض على اختيار الألفاظ المناسبة لواقع الحال يتطلب حضوراً لغوياً كبيراً ومعرفة واسعة بالمفردات و المترادفات والأضداد ، فالألفاظ العربية و إن كانت توحى أحياناً بالترادف إلا أنها تحمل اختلافاً جزئياً في المعاني ، فدقة الكلمات و توسع معانيها يدعو إلى الحيلة و الحذر عند الإستعمال. (الميساوي، 2015).

.العبارات:

معرفة المُلقي أو الكاتب للتراكيب و العبارات و أدوات الربط وطرق بناء الجمل أمراً واسع الأهمية من أجل إسقاط الألفاظ والعبارات على المعنى و ضبطها بدقة حتى لا تتسرب المفاهيم من بين السطور، و حتى تتناسب المعاني مع الأفكار المراد عرضها على المتلقي ، وكي تتألف مع مقتضى الحال يجب أن لا يعارض المقال واقع الحال و هذا الأمر يتطلب من العارض معرفة بعلوم البلاغة و اللغة من نحو وصرف... فيخرج الكلام عربياً فصيحاً تحترم فيه ضوابط الكلام من تقييم و تأخير و جذف .. فتحصل الفائدة و يعم الفهم ، و هذا ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في كتابه (دلائل الإعجاز) بقوله:(إن النظم هو توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض و على متعلم

الإنشاء أن لا يقتصر على معرفة أسلوب واحد بل يجب أن ينوع في معرفة أساليب الكتابة و طرق الإلقاء، ذلك أن هناك الكثير من أنواع الإنشاء كالخطابة و المحادثة و التصنيف و المقامات و الوصف...ومنها النظم و النثر، و ممارسة الإنشاء يستوجب معرفة طرق البلغاء و ذوقهم و ملكتهم) فقد قال بشر بن المعتمر:(ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني و يوازن بينها و بين أقدار المستمعين و بين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما و لكل حالة من ذلك مقاما، فإن كان خطيبا تجنب ألفاظ المتكلمين (علماء الكلام) كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا كان أولى أن يستعمل ألفاظ المتكلمين). (الميساوي، 2015)

.ثقافة العارض:

معرفة العارض بطباع الناس و تقاليدهم و أعمالهم و أقدارهم و طبقاتهم و طرق عيشهم و ما يحبون و ما يكرهون أمرا غاية في الأهمية حتى لايتعارض العارض مع المتلقي، كما يجب أن يكون المُلقي عارفا بأيام العرب و أعيادهم ، مواطن حزنهم ومواقع ضعفهم و قوتهم ، فمعرفة المحيط الثقافي والمسار التاريخي مهم جدا في بناء النص و معالجة أي موضوع حتى لا يسقط العارض في المحذور من الكلام، وعوض أن يقنع المتلقي بنفذه منه بعثرة من لسانه أو زلة من قلمه فينقلب القول على القائل .

الإنشاء المعنوي:

يقول ابن عاشور:(إنما ينشئ المنشئ معاني يعبر عنها بألفاظ ،فمادة الإنشاء هو المعنى و اللفظ ظرف له) فالمعاني هي المقصودة من أجل إخراجها إلى الضوء بعد أن كانت خفية إنما المنشئ هو من صورها في ذهنه كما أراد أن تكون عند المتلقي أو أن يتصورها و أحيانا المتلقي يضيف على الصورة بعض الزيادة من عنده حسب ما يوحي إليه اللفظ كما وقع مع أبيات أبي نواس:

ألا فاسقني خمرا و قل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إن أمكن الجهر

فأبو نواس وهو مار بجانب أحد الجماعة سمع أحدهم يشرح بيته ويقول: (إن أبا نواس عندما انتشى بحواسه الأربع الشم و اللمس و الذوق و النظر أراد أن تكمل نشوته بالسمع) لكن أبا نواس حين ما سئل عن قصده لم يقر بأنه قصد ذلك قال إنما أنا قلت و هم علمهم التأويل، ففي بناء الكلام قد لا يقصد الإنسان أمرا ما لكنه يفهم من بين السطور أو بالتأويل و قد يقصد الملقى أو الكاتب أن يترك مساحة للتأويل و مشاركة المتلقي في بناء المعنى و عليه التبعية، لكن عند ابن عاشور التخطيط لازم من لوازم الإنشاء و ترك المساحات يدخل ضمن الخطة المتبعة ، ذلك أن استحضار المعاني و اختيار الألفاظ التي تحمل هذه المعاني حتى تكون الوعاء المناسب ، لأن لكل معنى اللفظ المناسب الذي يعبر عنه و يخرج له للحس و يضيف عليه صورته الجميلة أو القبيحة حسب ما يريد العارض، و اختيار الألفاظ من اختيار العبارات ، فالألفاظ لا تفاضل بينها منفردة إنما تظهر قيمتها عند تركيبها فيما بينها لذلك يقسم الشيخ ابن عاشور المعنى إلى معاني مختلفة. (الميساوي، 2015)

تعريف المعنى و تقسيمه: (ابن عاشور، 2012)

ذكر ابن عاشور في تعريفه للمعنى ما ذهب إليه الجرجاني فهما فقال: (المعنى هو الصورة الذهنية من حيث تُقصد من اللفظ فهما وإفهاما) وهذا ما جاء في قول الجرجاني باختصار إذ قال: (المعاني هي الصورة الذهنية من حيث أنه وضع بإزاءها الألفاظ و الصورة الحاصلة في العقل من حيث أنها تقصد باللفظ سميت معنى، ومن حيث أنها تحصل من اللفظ في العقل سميت مفهوما).

فالمعنى هو الصورة الحاصلة و المقصودة من الملقى باللفظ المستعمل في التعبير عنها و يقسمه الشيخ ابن عاشور المعنى إلى: (ابن عاشور، 2012)

. معنى بسيط:

و هو المعنى الخالي من التحسين ذلك أن المتكلم أو الكاتب لا يستعمل فيه الحسنات اللفظية والصور البيانية و يأتي به العارض بصورته المباشرة كقولنا: (العلم نافع) فلو قلنا: (العلم نور) فإن الصورة مختلفة بين الجملتين و المفهوم واحد ألا و هو فائدة العلم ، العبارة العلم نافع لم نستعمل فيها المحسنات أما عبارة العلم نور فقد استعملنا فيها المحسنات البيانية، فالمعنى البسيط هو الذي تحمله الجملة في لفظه حيث لا نحتاج فيه إلى التنميق والتزويق و التأويل و إعمل النظر و العقل.

. المعنى المكيف:

هو الذي زيد في لفظه تنميكا لإفادة تحسين المعنى كالكناية في مثل: (لا يلدغ المؤمن من الجحر مرتين) فالمعنى يفهم بعد إدراك المقصود من العبارة فاللفظ هنا لا يحمل المعنى بل يفهم من تأويل التركيب، فالمقصود أن الإنسان المؤمن يستفيد من أخطائه أو كقولنا: (المؤمن كالمصباح) أي أنه مفيد لغيره.

. صفات المعنى:

يقول ابن عاشور إن للمعنى ثلاث صفات يجب توخيها و هي الوضوح والسداد و الشرف. (ابن عاشور، 2012)

. الوضوح:

و هو سهولة أخذ المعنى من قول صاحبه وذلك أن يخلو من اللبس و التعقيد المعنوي واللغوي ومن الكنايات الخفية إلا أن هذا اللبس و الكنايات إن تكفلت بها علوم البلاغة حل و فهم و الأحسن أن يكون المعنى المطلوب ظاهرا وقد يذكر القائل قولاً يفهم من الظاهر لكن القصد غير ذلك مثل ما جاء في بيت المتنبي في مدح كافور الإغشيدي إذ قال:

و ما طربي لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

فقد ظن أنه يمدحه لكن الحقيقة أن المتنبي كان يسخر منه إنما جعل كافور الإغشيدي قردا في قفص، وهذا ما ذهب إليه أبو الطيب اللغوي عندما قرأ عليه أبو الفتح ابن جني قصيدة المتنبي لأنه يعرف المتنبي ما كان ليمدح كافور الإغشيدي في تلك الأوضاع بل كان في بيته هذا متهمًا ساخرًا فالمتنبي كان يكرهه لأنه عرف عليه البخل و كان أسود البشرة ، و أبو الطيب اللغوي لأنه كان يعرف شخصية المتنبي كما يعرف خصال الإغشيدي و يعرف الأوضاع السائدة استطاع أن يفهم قصد المتنبي في بيته الشعري. (ابن جني، النجار، 2006).

. السداد:

هو موافقة للواقع ، و مطابقة لمقتضى الحال من غير زيادة كقول لبيد بن ربيعة:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل..... وكل نعيم لا محالة زائل

وهو أن لا يخرج المعنى عن المألوف حيث يناسب ما وضع له ولا بتناقض مع الأوضاع المحيطة به من نفسية و مادية و نفسية وأن يراعي الملقي المحيط الذي يلقي فيه قوله فلا يعترضه حاجز أو عائق فيخرج عن جادة الطريق لمخالفته الأعراف و التقاليد و القوانين، و قد يكون التأخر في القول أو التسرع فيه سببا في عدم الفهم أو الفساد، ذلك أن الزمن قد تجاوزه و إن تقدم لا يفهم فاختيار الزمان و المكان يعطي القول والكلام صبغته و فائدته، فالكثير من المعاني لم تفهم في زمنها وُعِد أصحابها مجانين، أثبت أنهم عقلاء بعد ما ماتوا و كثير من الأفكار الرجال لم تخرج من أفواه الرجال حتى صارت بالية. (ابن عاشور، 2012)

. الشرف:

هو أن لا يكون المعنى سخيفا و لا مشتمل على فضول سواء كان سابقا للذهن أم مبتكرا، و كلامها يجتنب إذا كان سخيفا مبتذلا.

ذلك أن النفوس تنفر من المعاني السخيفة تسأم من الفضول، فشرف الكلمات و العبارات يعود إلى معانيها و قد يتعرض المعنى الشريف إلى السخافة إذا وقع في غير موقعه ، كالذي يحمد الله على أنه نجح في السرقة فالحمد معنى شريف صار سخيفا إذ كان على السرقة فالحمد لا يكون لمثل هذه الأعمال أو ما يشبهها. (ابن عاشور، 2012)

الخاتمة

البلاغة من الفنون القديمة التي عرفتها اللغة العربية والإهتمام بها ليس بالأمر الجديد فقد تدرجت من جيل إلى جيل عبر التاريخ و قد كان للغويين الأثر الكبير في هذه الأعمال متناثرة هنا و هناك بين طيات الكتب إلى أن أن أفردتها عبد القاهر الجرجاني بالدراسة و أسس لها قواعد خاصة بها و أوضح معالم هذا الفن و رتب علومها وصنفها...و الإهتمام بالبلاغة يعود لأنها من صميم العربية لغة القرآن الكريم، أنها تعبر عن قيمة العقل العربي و زينته فيها يصلح المتكلم لسانه و يظهر قدرته لذلك ما زال الإهتمام بها و البحث في أغوارها من أجل إظهار الجديد...فالدراسات الحديثة ما تنفك أن تستخرج كنوز هذه اللغة العظيمة و عمل الشيخ الطاهر ابن عاشور في هذا المجال و إن كان جديدا و مبدع إلا أنه ليس نهاية الدراسات البلاغية .

المراجع:

- الإنشاء و الخطابة /العلامة للطاهر ابن عاشور،
- محمد الطاهر ابن عاشور ، أصول الإنشاء و الخطابة ، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1433 - 2012
- عبد العزيز عتيق ، البلاغة العربية علم المعاني ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان ، 1430 - 2009.
- محمد الطاهر الميساوي ، جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن ، الطبعة الأولى، 1436 هـ - 2015 م.
- عبد القادر حسين ، أثر النحاة في البحث البلاغي ، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة - مصر ، 1999.
- ابن الأثير ، ضياء الدين، نصر الله بن محمد ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة ، بدون سنة.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، 2006.
- الجرجاني ، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد النحوي ، دلائل الإعجاز ، تعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي - مطبعة المدني ، 1912.